أهمية المنهج الكيفي في البحوث السوسيولوجية

(دراسة نظرية على عينة من رسائل الماجستير تخصص علم الاجتماع، جامعة عدن)

أستاذ مساعد د. أمل صالح سعد راجح

قسم علم الاجتماع، كلية الآداب، جامعة عدن

الملخص:

يهدف البحث إلى معرفة أهمية البحث الكيفي في الدراسات السوسيولوجية، تلك الدراسات التي تركز على الفهم والتفسير، وتعنى بدراسة ظواهر اجتماعية تختلف عن الظواهر الطبيعة التي تتغير بنمط ثابت على وفق قوانين ثابتة ومطردة، وأي اختلال في هذه الأنظمة قد يسبب تأثيرات عديدة إما على الإنسان وإما على البيئة المحيطة به. لكن الظواهر الاجتماعية تغيرها دائم وغير منتظم، مما يدفعنا إلى دراستها دراسة متعمقة نستجلي كنهها، فقد ترتبط بالعلاقات الاجتماعية أو بمراكز السلطة أو بالقيم الدينية والبحث في هذه الأمور وغيرها يستوجب مناهج وطرق تساعد في استخلاص المعلومات وبأفضل الطرق وذات مصداقية ومن العمق بحيث نضع رؤية صادقة وحقيقة لهذه الظاهرة أو تلك.

وفي إطار رصدنا للمنهجية المتبعة في البحوث السوسيولوجية تم اختيار (٣٨) رسالة في برنامج الماجستير في تخصص علم الاجتماع (كلية الآداب، جامعة عدن)؛ إذ تم ترتيبها بحسب مجالات علم الاجتماع التي تنتمي إليه الظاهرة الاجتماعية قيد البحث وقد توصلنا إلى مجموعة من النتائج نوجزها في الآتي:

- بعض الرسائل اعتمدت على منهج واحد في دراسة الظاهرة قيد البحث والبعض الآخر مزجت بين أكثر من منهج، واعتمدت على أكثر من وسيلة لجمع البيانات المتعلقة بالعينة وذلك يعود لخصوصية الظاهرة الاجتماعية، فعند البحث عن بيانات للظاهرة المدروسة يستعين الباحث بأكثر من طريقة للوصول إلى نتائج تتسم بالدقة والموضوعية.
- لم تتضمن الرسائل المشار إليها ذكر للمنهج الكيفي مع أن بعض الرسائل أشارت إلى استخدام بعض مناهج وطرق المنهج الكيفي؛ لدراسة الظاهرة الاجتماعية قيد البحث كمنهج دراسة الحالة أو طريقة المقابلة أو طريقة الجماعات البؤرية، ولكن لم يشر في متن الرسالة إلا أن المنهجية المتبعة تعتمد على المنهج الكيفي في دراسة الظاهرة الاجتماعية

قيد البحث. وهذا يرجع في نظرنا إلى قلة الاهتمام بالبحوث الكيفية وعدم إعطائها الأهمية الكبيرة؛ إذ التركيز فقط منصبّ على البحوث الكمية والاهتمام بتوفير الإحصاءات من تكرارات ونسب مئوية دون الاهتمام بتوفير بيانات ترتكز على فهم معاني وخبرات الأفراد. وهذا هو حال أغلب الدراسات السوسيولوجية التي لا تخلو دراسة من وجود الإحصاءات والبيانات، مع أنه إذا تم التركيز على الجوانب الكيفية وإعطاء صورة عامة عن الظاهرة المبحوثة من خلال آراء واتجاهات وخبرات الأفراد المبحوثين ومعاناتهم لفهم عندئذ أسباب ظهور وبروز أغلب الظواهر الاجتماعية ومن ثم تسنى معالجتها وسبر أغوارها.

Abstract

The study aimed at identifying the importance of qualitative approach in sociological studies that focus on understanding and explanation; such studies also deal with the social phenomena that differ from natural phenomena. The natural phenomena change according to a fixed pattern, and constant and steady laws; any change in such systems may cause different effects either on human-being or a surrounding environment.

However, the change of social phenomena is continuous and irregular. This motivates us to study them in depth to find out their causes. The social phenomena may relate to social relationships, positions of power, or religious values. Therefore, research on these issues and others require approaches and methods that help elicit information by using appropriate ways having validity, where we can give a real and credible vision for such phenomena.

Within the framework for checking of the methodology used in sociological research, (38) master dissertations in the specialization of Sociology (Faculty of Arts/ University of Aden) have been selected. They have been arranged according to sociology disciplines, to which the phenomenon under study belongs. The study revealed a number of findings, we summarize them as follows:

Some of the master's dissertations utilized one method to study a phenomenon in question. Other studies have merged more than one method and used more than one instrument to collect the data required related to the sample. This goes back to the peculiarity of the social phenomenon. When searching for the data required related to a studied phenomenon, a researcher employs more than one method to reach to precise and objective findings.

The aforementioned master's dissertations have not included any mentioning of the qualitative approach, although some of them refereed to using some methods of qualitative approach to study a social phenomenon in question, such as a case study method, an interview method, and a focus groups method. However, it has not been indicated in the dissertations that the utilized approach relied on the qualitative

approach to study the social phenomenon in question. From our point of view, this is due to the lack of interest in qualitative studies and not giving them a great importance, and focusing only on quantitative studies. It is also attributable to paying attention to providing data focusing on statistics such frequencies and percentages, without attention to providing data focusing on understanding individuals' experiences.

This is the case of the most sociological studies, where there is no study free of statistics and data, even though focusing on the qualitative aspects and giving them a general representation of the phenomenon studied have been done through the opinions, attitudes and experiences of the respondents and their suffering, the reasons of the emergence of most of the social phenomena could be understood, and then can be addressed and explored them.

المقدمة:

درجت الدراسات السوسيولوجية على الاستعانة بمناهج بحثية عند الشروع في دراسة أي ظاهرة اجتماعية كغيرها من العلوم الأخرى. إما أن تكون هذه المناهج كمية وإما كيفية، إذ تهدف المناهج الكمية إلى إنتاج بيانات عددية أو إحصائية نستطيع بواسطتها قياس الظاهرة محل البحث. بينما المناهج الكيفية بصفة أساسية تهتم أساسًا بإنتاج بيانات حول الخبرات والمعاني الشخصية للمبحوثين أو الفاعلين الاجتماعيين وذلك من خلال دراسة سلوكهم في السياق الاجتماعي المنتمين اليه.

وعلى الرغم من أهمية المنهج الكمي في دراسة الظاهرة الاجتماعية، إلا أن هناك ظواهر تستدعي الغوص في كنهها وفهم أسبابها بعيدًا عن البيانات والإحصاءات الكمية، إذ يتطلب وجود منهج كيفي يعنى بأسباب الظواهر الاجتماعية والتي قد تكون غائبة عن الباحث الاجتماعي ومقاييسه العددية ولكنها كانت حاضره في آراء واتجاهات المبحوثين، باعتبار أن طرق البحث الكيفي قادرة على تناول بعض المفاهيم الهامة في الفكر الاجتماعي مثل مفاهيم القوة والأيديولوجية والمعاني الذاتية.

ينطلق الاهتمام في المنهج الكيفي من أن " الحقيقة التي يلتمسها الباحث في العلم الاجتماعي لن تتولد إلا بالمشاركة بينة وبين مبحوثة أو (مبحوثية) وعليه أن يدخل كيانهم ومشاعرهم وخبراتهم وتصوراتهم في الحسبان في كافة مراحل البحث: منذ تصميم خطة البحث، مرورًا بعمليات جمع المادة، وتصنيفها وتحليلها، وحتى كتابة التقرير النهائي. المبحوث هنا إنسان كامل الأهلية وصاحب حقوق مقدسة وكيانه مساعد لكيان الباحث، هو شريك في صنع حياته، أو هو يسعى –على الأقل إلى ذلك لأنه يعيه تمام الوعي"(هس وليفي،٢٠١١: ص١٢،١٣).

فالبحث الاجتماعي ليس مجرد صياغة نتائج والقيام بعرضها وتكديس بيانات وليس مجرد مجموعة من المتغيرات المتجمعة مع بعضها البعض، إنما هو الوصول إلى الحقيقة. حقيقة وصول المجتمع والإنسان إلى ما وصل إليه من التطورات الإيجابية أو السلبية. حقيقة ما يعانيه الإنسان من المشاكل والاضطرابات والمآسي والذي لن يترجمها ويعبر عنها سواه؛ لذا يجب أن نكون قادرين على اكتشاف تلك المشاكل ورؤيتها بشكل أدق وأعمق.

فالبحث الكيفي –إذن ليس مجرد مفهوم عام، أو مجرد مجموعة من الأساليب التي يسهل استعمالها، إنما هو – فوق ذلك – مهارة عقلية، إبداعية دقيقة جدًّا لا يكتفي من يمارسها بتعلمها فقط بل إنه يسهم كذلك في تطويرها.

(هس وليفي،٢٠١١: ص١٢،١٣).

إشكالية الدراسة:

مما لا شك فيه أن التكامل بين مناهج البحث الاجتماعي في دراسة الظاهرة الاجتماعية يعد من الأهمية؛ إذ يؤدي إلى الوصول إلى نتائج مهمة تفيد في حل مسببات الظاهرة قيد البحث. إلا أننا نجد أن التركيز فقط على المناهج الكمية في دراسة هذه الظواهر في أغلب الدراسات السوسيولوجية لا يساعد في فهم الأسباب الحقيقية لحدوث هذه الظاهرة وغيرها من الظواهر، حتى إن توافرت الإحصاءات العددية والنسب والتكرارات ومختلف المقاييس الإحصائية تظل خبرات وآراء الفاعلين الاجتماعيين محل البحث هي الفيصل في فهم أسباب حدوث الظواهر الاجتماعية. مع العلم أنه توجد ظواهر اجتماعية ترتكز على المنهج الكمي بشكل أساس في دراستها وتحليلها لنتائج دراستها فهذا يعود لطبيعة هذه الظواهر كما أشرنا سابقًا.

"إن أهمية المنهج الكيفي تظهر من خلال ما يوفره للباحث من وسائل متنوعة لجمع البيانات مثل المقابلة والملاحظة ودراسة الحالة والسيرة الذاتية ويتيح له كل ما يمكن استخدامه للحصول على البيانات كالاستبيانات بأنواعها ووسائل التسجيل الصوتي والمرئي والوثائق والنصوص وكل ما يرى الباحث بأنه ذو فائدة في تحليل الظاهرة المدروسة، كما يتيح المنهج الكيفي للباحث استخدام تجاربه الخاصة ووجهات نظره وأفكاره وتأملاته ... لقد أسهمت هذه المزايا في ارتياد آفاق جديدة في البحث الاجتماعي والتمكن من دراسة الكثير من القضايا خاصة تلك التي لا يعرف فيها الكثير، أو تلك التي تتميز بالحساسية والعمق العاطفي، وطورت الدراسات التي تهتم بالسلوك والمبادئ والتجارب المعاشة التي يكونها الأفراد حولها التي لا يمكن للوسائل البحثية القياسية المتعارف عليها سبر غورها" (حجر،٢٠٠٣: ص١٣٥).

وعليه وللأهمية التي يحتلها البحث الكيفي في الدراسات السوسيولوجية حاولنا استقصاء ذلك من خلال دراسة مجموعة من رسائل الماجستير المجازة في تخصص علم الاجتماع في كلية الآداب في جامعة عدن، وذلك لمعرفة ارتكاز هذه الرسائل على المنهج الكيفي في عملية دراسة الظواهر الاجتماعية قيد رسائلهم؛ لذا تتمثل مشكلة البحث في التساؤل الآتي:

هل كان المنهج الكيفي من ضمن المنهجية التي استندت عليها رسائل الماجستير في تخصص علم الاجتماع في كلية الآداب في جامعة عدن، أم أنها استندت على المنهج الكمي فقط؟

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى تحقيق الأهداف الآتية:

١- إظهار أهمية المنهج الكيفي في الدراسات السوسيولوجية، وذلك بكونه يتيح للباحث الاجتماعي دراسة الظواهر الاجتماعية دراسة وافية متوخيًا كشف أسباب حدوثها.

٢- الكشف عن المنهجية المتبعة في رسائل الماجستير تخصص علم الاجتماع في جامعة عدن في معالجة الظواهر الاجتماعية قيد الدراسة، وهل تنوعت بين المنهج الكمي والكيفي، أم أنها اقتصرت على منهجية واحدة؟

أهمية الدراسة:

- تعد الدراسات السوسيولوجية من أهم الدراسات الهادفة إلى حل المشكلات التي تواجه أفراد المجتمع مستعينة بذلك بمناهج متعددة، وفقًا لنوع الظاهرة أو المشكلة قيد البحث، واعتماد هذه الدراسات على مناهج تساعد في بلورة وحل المشكلة قيد البحث يعد من أساسيات البحث العلمي؛ لذا تكمن أهمية الدراسة في تأكيدها على أن تنوع هذه المناهج يثري من نتائج هذه الدراسات، ويجعلها قادرة على البحث في المسببات الحقيقية لحدوث هذه الظواهر والاقتصار على مناهج بعينها يحد من قدرة هذه الدراسات على سبر أغوار الظواهر قيد الدراسة والبحث.
- كما تعد هذه الدراسة من الدراسات القلائل التي تعنى بالمنهج الكيفي، كمنهج قادر على دراسة الظواهر والمشكلات الاجتماعية دراسة وافية إذا وظفت طرقه البحثية بشكل صحيح.
- أيضًا تكمن أهمية الدراسة في تركيزها على دراسة المنهجية المتبعة في رسائل الماجستير في تخصص علم الاجتماع في كلية الآداب (جامعة عدن)، وذلك لأهمية هذا التخصص في الجامعة. كما تعد الدراسة إضافة جديدة إلى المكتبة والباحثين وللمعرفة الإنسانية عامة.

مفاهيم الدراسة:

- **المنهج والمنهجية** (Method, Methodology):

المنهج هو طريقة البحث التي يستعملها الباحث في جمع المعلومات وتصنيفها وتحليلها والاستفادة منها في الدراسة العملية التي يزمع إجراءها. أما المنهجية فهي التكتيك العلمي الذي

يستعمله الباحث في جمع البيانات وتحليلها واستعمال نتائجها في بناء النظريات وتكوين القوانين العلمية التي تطور الحقل العلمي المعين (الحسن،١٩٩٩: ص٥٩٩).

المنهج عند عبد الرحمن بدوي هو الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة تهيمن على سير العقل وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة (بدوي،١٩٧٧: ص٥).

" يحدث في إطار منهجية البحث أن تلتقي النظرية بالطريقة من أجل إيجاد مرشد يوجه الباحث في وضع خطه البحث، كما يوجهه في أثناء تنفيذها ابتداءً من صياغة الأسئلة، وانتهاء بالتحليل والعرض. وتبين هاردنج أن منهجية البحث عبارة عن نظرية أو تصور للطريقة التي يتعين أن يتم بها البحث أو الطريقة التي ينبغي أن يظهر بها ... ومنهجية البحث هي الجسر الذي يجمع النظرية والطريقة معًا، أو يجمع المنظور الفكري والأداة معًا. "(هس وليفي، ص٩١).

من هنا فإن طرق البحث (Research methods) هي الأدوات التي يستعملها الباحثون لكي يجمعوا البيانات. فطريقة البحث عبارة عن أسلوب أو تقنية لجمع الشواهد والأدلة ... وكثيرًا ما يستعمل الباحثون الكيفيون واحدة أو أكثر من طرق البحث التالية: طريقة البحث الميداني (الأثنوجرافي) وطريقة المقابلة المتعمقة، وطريقة التاريخ الشفاهي وطريقة البحث الأثنوجرافي الذي يكتبه المبحوث عن نفسه، وإجراء المقابلات مع جماعات المناقشة المركزة ودراسة الحالة وطريقة تحليل الخطاب وطريقة تحليل المضمون وغيرها من الطرق.

المناهج الكمية والكيفية (Quantitative and qualitative approaches):

"ينظر إلى المناهج الكمية التي تقترن عادة بنظرية المعرفة الوضعية بصفه عامة باعتبارها تشير إلى جمع وتحليل البيانات الرقمية. أما المناهج الكيفية التي تقترن العادة بالأبستمولوجيا التفسيرية، فتميل إلى أن تستخدم للإشارة إلى أشكال جمع وتحليل البيانات التي تعتمد على الفهم مع التأكيد على المعاني". (مارشال،٢٠٠١: ص١٣٩٨).

يقع المنهج الكيفي (Qualitative Method) عمومًا في إطار المنهج التحليلي (The Analytical method) المتسم بالعمومية والشمولية، على اعتبار أنه يمكننا القول بوجود تحليل كيفي وآخر كمي أو مقارن.

"كما يعرف البحث النوعي باعتماده على سحب العينات الهادفة والمقابلات التفاعلية التي تركز على هيكلية شبه محددة لجمع البيانات – وتركز أساسًا إلى استنباط ما يصر عن الناس من

أحكام، وتوجهات، وتفضيلات وأولويات، أو إدراكات تجاه موضوع ما، ثم تحليلها باستخدام الأساليب السوسيولوجية أو الأنثروبولوجية" (غدنز،٢٠٠٥: ص٦٧٦).

إذًا مصطلح البحوث الكيفية مصطلح شامل يحتوي على أنماط مختلفة من البحوث في علم الاجتماع منها البحوث الاثنوجرافية، ودراسة الحالة، والبحوث الميدانية والبحوث الطبيعية (التي تجري في مجال طبيعي)، وبحوث الملاحظة بالمشاركة، وتختلف هذه البحوث عن بعضها البعض في أسسها الفلسفية والتحليلية، إلا أن بينها جميعًا عددًا من المظاهر المشتركة تضعها في تصنيف واحد مقارنة بالبحوث الكمية.

وبناء على ما سبق وعلى الرغم من أهمية مناهج البحث الكمي في البحوث الإنسانية في اعتمادها على البيانات الإحصائية والتحليلات الكمية للوصول إلى تفسيرات يمكن تعميمها في فهم الظواهر الإنسانية " إلا أن هذه المناهج الكمية تتخذ من منهج العلوم الطبيعية المنهج الأوحد عند البحث في الظواهر الإنسانية دون الأخذ في الاعتبار الخصوصية الفريدة لتلك الظواهر وعلاقة الباحث الاجتماعي بها، وعلى هذا يأتي المنهج الكيفي بسمات وخصائص فريدة تأخذ بعين الاعتبار خصائص الظواهر الإنسانية المتسمة بالتغير المستمر والواقع المتعدد الجوانب(Multiple Reality) والسببية الدائرية (Circular Causality)؛ ليعطي آفاقًا جديدة للباحث الاجتماعي تمكنه من الاندماج مع الظاهرة الإنسانية والتفاعل معها وصولًا إلى فهم الواقع الاجتماعي المرتبط بها. (القرني: ص٢،١)

أهمية المنهج الكيفي:

إن المشاركة بين الباحث ومبحوثيه هي أهم ما ينادي به المنهج الكيفي. فالبحث الاجتماعي يتوخى إنتاج المعرفة، ولكن هذه المعرفة يجب ألا تكون فقط مجرد تجميع للبيانات و تحليلها دون تلمس الدواعي الحقيقة لحدوث المشكلة قيد البحث؛ إذ تكون هذه البيانات فاقدة للمعنى الحقيقي من وراء جمعها وتبويبها، فأهمية البيانات والمعلومات هي التي تعطي صورة واقعية وحقيقية لما نريد بحثه عن الظاهرة أو المشكلة المبحوثة. فالمشاركة بين الباحث ومبحوثية تعد من أهم أساسيات البحث الاجتماعي، فالمبحوثون أساس البحث الاجتماعي، وتكون النتائج معبره عنهم. "إذ يدخل الباحث آراءهم وخبراتهم وتصوراتهم في الحسبان في كافة مراحل البحث: منذ تصميم خطة البحث، مرورًا بعمليات جمع المادة، وتصنيفها وتحليلها، حتى كتابة التقرير النهائي. المبحوث هنا إنسان كامل الأهلية وصاحب حقوق مقدسة وكيانه مساعد لكيان الباحث، وهو شريك في

توليد المعرفة لأنه شريك في صنع حياته، أو هو يسعى – على الأقل إلى ذلك؛ لأنه يعيه تمام الوعي" (هس وليفي، ص١٢،١٣).

فعندما أقوم بالبحث في مشكلة العنف تجاه المرأة، فلا يكفي فقط توجيه أسئلة للمبحوثات عما إذا كن تعرضن للعنف أم لا، ولكن علي أن أتيح لهن بأن يعبرن عما يعانينه من هذا العنف، وما هي آثاره على نفسيتهن، وشخصيتهن، ورؤيتهن لأولادهن وحبهن لهم إن كان مصدر العنف من الزوج مثلًا. فهنا سأجد العديد من المشاعر التي تواجهها المبحوثات في هذا الجانب أثرت عليهن، وعلى أسلوب حياتهن، كما أنني أتيح للمبحوثات أن يبدين آراءهن في الحلول التي يرينها مناسبة للتخلص من هذه المشكلة، وأحاول أن أبلور ذلك في صياغة مقترحات أو حلول شاركت المبحوثات المعرضات للعنف في صياغتها.

وقد نجد أن إحدى الطرق المتبعة في دراسة هذه المشكلة هي المقابلة المتعمقة التي تسمى المقابلة المكثفة، "وهي إحدى طرق البحث الشائعة الاستعمال بين الباحثين الكيفيين في جمع البيانات. وتتخذ المقابلة المتعمقة الأفراد كمنطلق للعملية البحثية، وتعد المقابلات المتعمقة نوعًا خاصًا من الحوار بين الباحث والفرد، الذي يجري معه المقابلة يتطلب وجود التساؤل الفعال والإنصات الفعال" (هس وليفي،٢١١).

إن ذلك يساعد في توليد المعنى، وإخراج مكنونات النفس، وما تعانيه المبحوثات من مشاعر، وإحباطات وردود أفعال تجاه العنف الممارس ضدهن. وبهذا تختلف المقابلة الكيفية عن المقابلات الكمية، التي تتكون من أسئلة مقننة وموحدة (والتي تكون ذات نهاية مغلقة غالبًا، بمعنى أنها ذات اختيارات محددة للإجابات الممكنة)، وذلك بهدف الحصول على بيانات قياسية موحدة. فالبحث الكيفي يهتم بإخراج المعاناة التي يعانيها الأفراد وما يواجهون من المشكلات، وشعورهم إزاءها أكثر من الاهتمام بتجميع البيانات (رغم أهميتها) ولكن البيانات هي صورة هذه المشاعر والإحباطات التي يعانيها الأفراد. هي رؤيتنا للظاهرة الاجتماعية والفهم الحقيقي لها.

كما تعد طريقة جماعة المناقشة المركزة التي تتم بمقابلة عدد من المبحوثين إحدى طرق المنهج الكيفي "إذ تساعد الباحث على أن يقوم، وبطريقة استقرائية، ببلورة القضايا والأفكار والاهتمامات الرئيسية التي يستخرجها من مجموعة من المبحوثين في وقت واحد، وسوف تكون هذه البيانات ذات طابع كيفي، ومن ثم سوف تكون بيانات وصفية (حية وتفصيلية)، وموجهة لفهم العملية الاجتماعية، مما يعطي الباحث عمقًا واتساع أفق في موضوع لا يعرف عنه إلا القليل. "(هس وليفي،٣٣٢).

ومن الطرق التي يستند إليها المنهج الكيفي طريقة دراسة الحالة، فاتجاهات الفرد الاجتماعية و أنماط سلوكه قد تطورت عن محاولة التعامل مع الأحداث والخبرات الهامة في حياته، التي كانت بمنزلة نقاط تحول في تاريخه ... فطريقة دراسة الحالة يمكن أن تكون مفيدة لرجل الاجتماع في دراسة أولئك الذين فشلوا في تحقيق أهدافهم و أولئك الذين نجحوا في تحقيق تلك الأهداف؛ لأنها ستساعده على أن يدرك العوامل الهامة في كل من القرارات الماضية والحياة المستقبلية على السواء ... فالباحث الذي يستخدم هذه الطريقة يحاول أن ينظر إلى الفرد وموقفه وسلوكه باعتباره تشكيلاً كليًا من العوامل المركبة التي تؤثر فيه على امتداد الزمن. فطريقة دراسة الحالة إذًا عبارة عن اتجاه جشطالتي أو كلي (شمولي) Holistic في فهم الناس وليس أداة تجزيئية (تفصيلية) لتحليل السلوك الإنساني عن طريق إضافة السمات، وضروب السلوك المتشابهة كما هو الحال في طريقة البحوث المسحية. (الجوهري والخريجي،١٩٩٥: ص٢٤٥،٢٤٦،٢٤٧).

أيضًا يتضمن البحث الميداني الإثنوجرافي دراسة الجماعات والأفراد وهم يمارسون حياتهم اليومية. ويتطلب تنفيذ مثل هذا البحث نوعين مختلفين من المهام فالباحث الميداني يدخل أولاً، إلى بيئة اجتماعية ويحاول أن يتعرف على الناس الذين يعيشون فيها ... ويشارك الباحث في الأمور اليومية الروتينية لأطراف ذلك الموقف ويطور بمرور الوقت علاقات مستمرة مع الناس في هذا المجتمع. والواقع أن مصطلح "الملاحظة المشاركة" غالبًا ما يستخدم لتشخيص هذا المدخل الأساسي للبحث. ولكن الباحث من جهة ثانية، يدون بشكل منتظم ومنهجي كل ما يلاحظه وكل ما يقف عليه من معلومات أثناء مشاركته في جولات الحياة اليومية للآخرين. وهكذا ينشئ الباحث الميداني سجلاً مكتوبًا تتراكم فيه هذه الملاحظات والخبرات ويشمل هذان النشاطان المترابطان جوهر البحث الإثنوجرافي ألا وهو المشاركة الشخصية المباشرة في عالم اجتماعي لم يكن معروفًا من قبل، وإعداد تقارير مكتوبة عن هذا العالم يصور فيها مثل هذه المشاركة. (إيمرسون وآخرون،٢٠١٠: ص٥٣).

كما تعد طريقة تحليل المضمون من طرق البحث الكيفي (وتستخدم في منهج البحث الكمي أيضًا) إذ تهتم بدراسة النصوص وتحليل محتواها وتشمل النصوص المتضمنة في (الوثائق التاريخية، والصحف، والمجلات، والصور الفوتوغرافية، والكتب، واليوميات والأعمال الأدبية والموسيقى، والتلفزيون، ومواقع الإنترنت وغيرها)؛ إذ تهدف للدراسة التفاعلات والعمليات الاجتماعية في الحياة الاجتماعية. فإذا رغب أحد الباحثين الكيفيين بدراسة تأثير صور الإعلانات في جمهور المشاهدين، وذلك من خلال تأثير صور الإعلانات عليهم وتبنيهم القيم الاستهلاكية فإن طريقة تحليل مضمون هذه الإعلانات يعد أنسب الطرق في دراسة هذه الظاهرة. "كذا يعد تحليل

مضمون الصور الفوتوغرافية أحد الطرق لدراسة التغير الاجتماعي بعمل المصورين الفوتوغرافيين؛ من أجل توثيق صور الأشكال المختلفة للتغير الاجتماعي، ثم تفسيرها بعد ذلك. وقد يحدث ذلك مثلًا لدراسة التغيرات المصاحبة لعملية تحضير منطقة معينة، أو لدراسة مدى تأثير التغير الاجتماعي والاقتصادي على إحدى البيئات السكانية أو أحد المراكز الثقافية، أو على أحد مواقع العمل "(هس وليفي،٢٠٠٥).

إن المنهج الكيفي هو أحد المناهج الذي يهتم بإظهار صور المعاناة التي يعانيها أغلب الناس في مجتمعاتهم وصور التعبير عن أفراحهم وأحزانهم، إنه المشاركة الفعلية بين الباحث والمبحوثين، لا أن يتركز العمل البحثي في دائرة واحدة مركزها الوحيد هو الباحث نفسه. إنه يعطي للمبحوثين الحرية في التعبير عن ما يعانونه من مشاكل ومصاعب فالمهاجرين والمشردين والمنبوذين والجانحين وغيرهم يحتاجون منا نحن الباحثين إلى الإصغاء وسماع معاناتهم لا أن ندون كم عددهم ونسبتهم فقط.

المناهج الكيفية في رسائل الماجستير تخصص علم الاجتماع (كلية الآداب، جامعة عدن):

لأجل استقصاء المنهجية المتبعة في رسائل الماجستير تخصص علم الاجتماع (كلية الآداب، جامعة عدن) تم اختيار عدد (٣٨) رسالة ماجستير نوقشت في القسم العلمي. من ثم قامت الباحثة بتبويب هذه الرسائل بحسب كل مجال تنضوي فيه الظاهرة قيد البحث، إن كان في مجال علم اجتماع التربية، أو علم اجتماع التنمية، أو في فرع المشكلات الاجتماعية، أو علم اجتماع المرأة وغيرها من المجالات التي يحتويها علم الاجتماع. وبعد تحديد مجال الرسائل العلمية التي تناولت دراسة الظواهر الاجتماعية قيد البحث، تم دراسة المنهجية المتبعة في هذه الرسائل، هل اعتمدت على منهجية تعزز فيها المنهج الكيفي أم ارتكزت على المنهج الكمي أم مزجت بين المنهجين الكمي والكيفي؟

من خلال الجداول الآتية نستخلص بعض النتائج بخصوص المنهجية المتبعة في الرسائل العلمية لتخصص علم الاجتماع (كلية الآداب، جامعة عدن) في دراسة الظواهر الاجتماعية.

جدول رقم (١) يوضح مجالات الدراسة لرسائل الماجستير

مجالات الدراسة	التكرار	النسبة%
علم اجتماع السكان	٤	١٠.٥
علم الاجتماع التربوي	٤	١٠.٥

علم اجتماع المرأة	٣	٨٩ .٧
المشكلات الاجتماعية	١١	٩ .٢٨
علم اجتماع الجريمة	١	٦٣ .٢
علم اجتماع الأسرة	٧	٤٢ .١٨
علم الاجتماع الطبي	١	٦٣ .٢
السياسات الاجتماعية	٢	٢٦ .٥
علم الاجتماع الريفي	١	٦٣ .٢
علم الاجتماع التنمية	٢	٢٦ .٥
علم اجتماع العمل	٢	٢٦ .٥
الإجمالي	٣٨	١٠٠

يتضح من بيانات الجدول الخاص بمجالات الدراسة لرسائل الماجستير في تخصص علم الاجتماع، أنها تنوعت في أكثر من مجال من مجالات وفروع علم الاجتماع. فجاء مجال أو فرع (المشكلات الاجتماعية) في المرتبة الأولى بنسبة (٢٨. ٩%). مما يدل على اهتمام الطلاب وتركيزهم كان على دراسة المشكلات الاجتماعية في المجتمع، وسبل معالجتها. وتلي ذلك مجال (علم اجتماع الأسرة)، الذي بلغ بنسبة (١٨. ٤٢%)، إذ تعد الأسرة والنظام الأسري، وما يعتمل داخله من تفاعلات وعلاقات اجتماعية وما ينتج عن ذلك من مشكلات اجتماعية من أهم المرتكزات لإعداد دراسات وأبحاث في هذا المجال الحيوي. أما مجالي (علم الاجتماع التربوي وعلم اجتماع السكان) فقد بلغا بنسب متساوية وهي (١٠. ٥) وهما من المجالات الهامة في علم الاجتماع. أما مجال (علم الاجتماع المرأة) وهو من المجالات الحديثة، فقد جاء بنسبة (٧. ٨٩%) ومن ثم جاءت مجالات "علم اجتماع الجريمة، وعلم الاجتماع الطبي، والسياسات الاجتماعية، وعلم الاجتماع الريفي، وعلم اجتماع التنمية والعمل " بنسب تتراوح بين (٥. ٢٦%) و (٢. ٦٣%). وقد شكلت مجالات علم الاجتماع التي تناولتها الرسائل (٣٨) مجالًا.

جدول رقم (٢) يوضح منهج الدراسة المستخدم في رسائل الماجستير

منهج الدراسة	التكرار*	النسبة%
المنهج الوصفي التحليلي	٢٧	١ .٧١

المسح الاجتماعي	١٧	٧ .٤٤
المنهج المقارن	١٧	٧ .٤٤
المنهج التاريخي	١٢	٦ .٣١
منهج دراسة الحالة	٣	٩ .٧
المنهج الإحصائي التحليلي	٦	٨ .١٥

*(تكرارات متعددة) استخدمت هذه الرسائل مناهج متعددة في معالجة موضوع دراستها.

نجد من بيانات الجدول رقم (٢)، الخاص بمنهج الدراسة المستخدم في رسائل الماجستير في تخصص علم الاجتماع في كلية الآداب أن المنهج الوصفي التحليلي قد جاء بالمرتبة الأولى في استخدامه في رسائل الماجستير، إذ بلغ بنسبة (٧١. ١%) وهذا الملاحظ في أغلب رسائل الماجستير لتخصصات العلوم الاجتماعية، إذ تنطلق من المنهج الوصفي التحليلي في معالجتها للظواهر قيد البحث من خلال وصفها، وتشخيصها، والوقوف على كنهها. يأتي بعد ذلك منهج المسح الاجتماعي، والمنهج المقارن الذي بلغا بنسبة (٤٤. ٧ %) وهما من أهم مناهج البحث العلمي اللذان يعملان على دراسة الظواهر الاجتماعية وتحليلها. ويأتي المنهج التاريخي بنسبة (٣١. ٦%)؛ إذ يأتي استخدامه حسب طبيعة الظاهرة المبحوثة وما يرتبط بها من تسلسل تاريخي. أما المنهج الإحصائي، فقد بلغ نسبة (١٥. ٨%) تليه منهج دراسة الحالة، الذي بلغ نسبة (٧. ٩ %). والملاحظ على هذه الرسائل عدم ذكرها للمنهج الكيفي في منهجيتها العلمية مع أن هذه الرسائل استخدمت مناهج تنتمي إلى المنهج الكيفي كالمنهج التاريخي، والمقارن، ومنهج دراسة الحالة لكن لم تتضمن الإشارة إليه في متن الرسائل وفي منهجيتها. وفي هذا إغفال لأهمية المنهج الكيفي في البحوث الاجتماعية، وإغفال أهميته كمنهج يعالج الظواهر الاجتماعية بطريقة تظهر المشاكل الاجتماعية على حقيقتها والوصول إلى نتائج أكثر عمقًا وأكثر دقة من المناهج الكمية.

جدول رقم (٣) يوضح أداة الدراسة المستخدمة في رسائل الماجستير

أداة الدراسة	التكرار*	النسبة%
الاستبيان	٢٤	١٦ .٦٣
الملاحظة	٨	٠٥ .٢١
المقابلة	٨	٠٥ .٢١

*(تكرارات متعددة) استخدمت هذه الرسائل أدوات متعددة ومزجت بين الأدوات في معالجة موضوع دراستها.

يتضح من بيانات الجدول رقم (٣) الخاص باستخدام أداة الدراسة في رسائل الماجستير، أن أداة الاستبيان كانت هي الأداة الأكثر استخدامًا في البحوث السوسيولوجية إذ بلغت نسبة (٦٣. ١٦%) وتعد أداة الاستبيان من الأدوات الشائعة الاستخدام في البحوث السوسيولوجية والبحوث الاجتماعية الأخرى كالبحوث التربوية وبحوث علم النفس. وبعد هذه الأداة جاء استخدام أداتي المقابلة والملاحظة إذ بلغتا نسبًا متساوية، وهي (٢١. ٠٥%).

جدول رقم (٤) يوضح ملخصًا عامًا لوصف مجالات الدراسة والمنهج المستخدم في رسائل الماجستير في كلية الآداب في جامعة عدن

م	الرسائل العلمية بحسب مجالات علم الاجتماع	المنهجية المتبعة في دراسة الظواهر الاجتماعية المنتمية لهذا المجال
١	علم اجتماع السكان	المنهج الوصفي التحليلي- المنهج المقارن- المسوحات الاجتماعية – استخدام أدوات جمع البيانات (الاستبانة- المقابلة- الملاحظة) استخدام الطرق الإحصائية
٢	علم اجتماع المرأة	المنهج الوصفي التحليلي - المسوحات الاجتماعية- استخدام أدوات جمع البيانات (الاستبانة- المقابلة)
٣	علم اجتماع التربية	المسح الاجتماعي بالعينة – المنهج المقارن- المنهج الوصفي التحليلي – المنهج التاريخي
٤	المشكلات الاجتماعية	المنهج الوصفي التحليلي- المنهج المقارن- المسح الاجتماعي بالعينة- المنهج التاريخي – استخدام أدوات جمع البيانات (الاستبانة- المقابلة - الملاحظة بالمشاركة) منهج دراسة الحالة - استخدام الطرق الإحصائية
٥	علم اجتماع الأسرة	المسح الاجتماعي بالعينة- المنهج التاريخي- المنهج الوصفي التحليلي

٦-	علم الاجتماع الريفي	المنهج الوصفي التحليلي- استخدام أدوات جمع البيانات (الاستبانة- المقابلة- الملاحظة)
٧	السياسات الاجتماعية	منهج دراسة الحالة – المنهج التاريخي- المنهج المقارن- استخدام الطرق الإحصائية

من خلال ما تقدم من الجانب النظري والجداول الموضحة لمجالات ومنهج الدراسة والأدوات المستخدمة نستخلص الآتي:

- تنوعت هذه الرسائل بحسب فروع عديدة لعلم الاجتماع كما هو مشار في الجدول السابق.
- اعتمدت هذه الرسائل على منهجية علمية عند الشروع في دراسة الظاهرة الاجتماعية قيد البحث، ولا تكاد تخلو رسالة علمية من المنهجية أو طرق جمع البيانات لدراسة الظاهرة قيد البحث.
- بعض الرسائل اعتمدت على منهج واحد في دراسة الظاهرة قيد البحث والبعض الآخر مزجت بين أكثر من منهج، واعتمدت على أكثر من وسيلة لجمع البيانات المتعلقة بالعينة، وذلك يعود لخصوصية الظاهرة الاجتماعية، إذ عند البحث عن بيانات للظاهرة المدروسة يستعين الباحث بأكثر من طريقة للوصول إلى نتائج تتسم بالدقة والموضوعية.
- لم تتضمن الرسائل المشار إليها ذكر للمنهج الكيفي في منهجيتها المتبعة للدراسة الظاهرة الاجتماعية (موضوع الرسالة) مع أن بعض الرسائل أشارت إلى استخدام بعض طرق المنهج الكيفي في دراسة الظاهرة الاجتماعية قيد البحث كدراسة الحالة، أو طريقة المقابلة، أو طريقة الجماعات البؤرية. ولكن لم يشر في متن الرسالة إلى أن المنهجية المتبعة سوف تعتمد على المنهج الكيفي في دراسة الظاهرة الاجتماعية قيد البحث. وهذا يرجع في نظرنا إلى قلة الاهتمام بالبحوث الكيفية وعدم إعطائها الأهمية الكبيرة إذ التركيز منصب على البحوث الكمية. والاهتمام بتوفير الإحصاءات الكمية من تكرارات ونسب مئوية دون الاهتمام بتوفير بيانات ترتكز على فهم معاني وخبرات الأفراد. وهذا هو حال أغلب الدراسات السوسيولوجية التي لا تخلو دراسة من وجود الإحصاءات، والبيانات مع أنه إذا تم التركيز على الجوانب الكيفية وإعطاء صورة عامة عن الظاهرة المبحوثة من خلال آراء واتجاهات وخبرات الأفراد المبحوثين، ومعاناتهم لفهم عندئذ أسباب ظهور وبروز أغلب الظواهر الاجتماعية، ومن ثم تسنى معالجتها وسبر أغوارها.

المراجع:

١- الحسن، إحسان محمد(١٩٩٩) موسوعة علم الاجتماع، الدار العربية للموسوعات، بيروت، الطبعة الأولى.

٢- القرني، محمد مسفر، منهج البحث الكيفي والخدمة الاجتماعية العيادية، جامعة أم القرى.

٣- ايمرسون، روبرت وآخرون (٢٠١٠) البحث الميداني الاثنوجرافي في العلوم الاجتماعية، ترجمة هناء الجوهري، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، العدد ١٤٦٠، الطبعة الأولى.

٤- بدوي، عبدالرحمن(١٩٧٧) مناهج البحث الاجتماعي، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الثالثة.

٥- بيبر، شارلين هس وليفي، باتريشيا (٢٠١١) البحوث الكيفية في العلوم الاجتماعية، ترجمة هناء الجوهري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

٦- غدنز، أنتوني (٢٠٠٥)، علم الاجتماع (مع مدخلات عربية)، ترجمة فايز الصياغ، المنظمة العربية للترجمة، مؤسسة ترجمان، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

٧- مارشال، جوردن(٢٠٠١) موسوعة علم الاجتماع، ترجمة محمد الجوهري وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى.
٨- محمد، الجوهري والخريجي، عبدالله (١٩٩٥) طرق البحث الاجتماعي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية الطبعة الرابعة.